

البنوية التكوينية؛ أركيولوجيا الفهم وازدواجية المفهوم في النقد العربي المعاصر، قراءة في نماذج  
Genetic structuralism; Archeology of Understanding and Duality of  
Concept in Contemporary Arab Criticism -Read in models-

ط. د سعيدة شايبى<sup>1</sup> / د. سليم بركان<sup>2</sup>

Saida Chaibi<sup>1</sup> / Salim Borkane<sup>2</sup>

مخبر مناهج النقد المعاصر وتحليل الخطاب.

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 02- (الجزائر)

University Of Mohamed Lamine Debaghine Setif 02 (Algeria)

[sa.chaibi@univ-setif2.dz](mailto:sa.chaibi@univ-setif2.dz)<sup>1</sup> / [salimborkane@yahoo.fr](mailto:salimborkane@yahoo.fr)<sup>2</sup>

|                         |                          |                           |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|
| تاريخ النشر: 2023/09/02 | تاريخ القبول: 2023/03/16 | تاريخ الإرسال: 2023/02/04 |
|-------------------------|--------------------------|---------------------------|

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى تتبع مسارات القراءة المفهومية المنوطة بالمنهج البنوي التكويني وباستقبال النقد العربي المعاصر لمنهج غولدمان، متجاوزين بذلك إشكالية المصطلح إلى إشكالية جديدة تتعلق - هذه المرة - بأزمة ازدواجية الرؤية النقدية للمنهج؛ إذ تقف القراءات العربية المعاصرة لمفهوم المنهج البنوي التكويني عبر طرفي تقيض؛ ما بين القول بامتداد منهج غولدمان للبنوية الشكلانية من جهة، وبين القول باستقلال المنهج من جهة أخرى. وذلك من خلال عرض بعض النماذج العربية، محاولين إبراز الفروق وتقديم الشواهد الدالة لكلا التوجهين.

الكلمات المفتاح: بنوية تكوينية، فهم، مفهوم، ازدواجية، نقد عربي معاصر.

Abstract:

This study aims to track the conceptual reading paths assigned to the formative structural approach and receiving Goldman's approach in contemporary Arab criticism, by passing the problem of the term to a new problem this Time is related to the crisis of duality of the curriculum's critical vision, as the contemporary Arab reading of the concept of the formative structural approach stand on two opposite sides; between saying that Goldman's approach extends to formal structuralism on the one hand and saying that the

\* ط. د سعيدة شايبى: [sa.chaibi@univ-setif2.dz](mailto:sa.chaibi@univ-setif2.dz)

approach is independent on the other hand. This is done by presenting some Arabic models, trying to highlight the differences and providing evidence for both approaches.

**Keywords:** genetic structuralism, understanding, Duality, contemporary Arab criticism.



#### مقدمة:

بعد الأزمة التي شهدتها المصطلح النقدي في الثقافة العربية، ومصطلح البنيوية التكوينية Structuralism Génétique خاصة، لم تتوقف أزمة هذا المنهج عند ذلك المستوى، بل تجاوزتها إلى إشكالية أكثر عمقا؛ تخص مفهوم المنهج أو تمثل القراءة العربية لمفهوم المصطلح الذي يبدو ضبابيا ومتذبذبا في كثير من الأحيان؛ إذ اتجهت القراءات النقدية العربية المعاصرة صوب تمثل المنهج وفق اتجاهين اثنين؛ أما الأول فينظر للمنهج البنيوي التكويني نظرة تبعية للمنهج البنيوي، وأما الآخر فيحاول تقويم الرؤية للمنهج من خلال التسليم باستقلاليته، وفي هذا الصدد "لم يول الباحثون العرب شأنا كبيرا لهذا المفهوم، فكانت ترجماتهم، في الأغلب الأعم، لشكل المصطلح لا للمفهوم الذي يحتويه"<sup>1</sup>. الأمر الذي شكّل مفارقات منهجية في تمثل الجهاز الإجرائي للبنيوية التكوينية في المدونة النقدية العربية التي اتخذت مسارات متباينة، كان مرجعها الأساسي بلورة منهج غولدمان انطلاقا من وعي الناقد البنيوي التكويني بخصوصية الخطاب في علاقته بمنظومة المنهج المقولانية، فكيف تمثلت هذه القراءات العربية المتباينة الدرس البنيوي التكويني؟ وعلى أي أساس معرفي أو رؤيوي يستند كل توجه نقدي في التدليل على رؤيته المعرفية مفهوم المنهج؟

لذلك تحاول هذه الورقة البحثية الإجابة عن هذه الإشكالات انطلاقا من اعتماد بعض النماذج النقدية العربية الممثلة للتوجهين، وكشف الأبعاد البراديغمية والمعرفية للمنهج البنيوي التكويني، وفق تصور منهجي يحيل إلى محورين اثنين:

أولا: البنيوية التكوينية؛ حدود التصور وطموح المنهج

ثانيا: البنيوية التكوينية وأزمة المفهوم في القراءات النقدية العربية المعاصرة: وهو المحور الذي فصلنا فيه الحديث عن هذه الإشكالات من خلال تقديم نماذج نقدية عربية ممثلة للتوجهين، ولها طرحها الثقافي الخاص بالمنهج البنيوي التكويني.

أولا: البنيوية التكوينية؛ حدود التصور وطموح المنهج

يحاول المنهج البنيوي التكويني - الذي أرسى معالمه الناقد والمفكر الفرنسي "لوسيان غولدمان" Lucien Goldmann - الوصول إلى مرحلة أكثر تطورا وفاعلية في مقارنة مختلف الخطابات الإبداعية؛ ذلك أن منهج غولدمان هو مراجعة للإرث السوسيولوجي التقليدي، والذي ركز في كثير من الأحيان على العلاقة الآلية بين

الإبداع والجمع، والتي تظهرت في مفهوم الانعكاس، ليكون تجاوز غولدمان المنهجي والمعرفي تجاوزا لمنظومة فكرية تمتد من الفلسفة المثالية إلى الماركسية؛ هذا الامتداد - الذي يمثل مسارا فلسفيا وانعطافا معرفيا - هو ما حاول غولدمان إعادة قراءته، ومن ثمة بلورة رؤية منهجية خاصة به يلخصها مصطلح "البنوية التكوينية".

والبنوية التكوينية منهج نقدي يتخذ من الأدب حقلا خصبا لتطبيقاته؛ إذ يمكن القول إن "مشروع غولدمان يتميز بكونه اتخذ النقد الأدبي مجالاً أساسياً لبلورة منهج ينطلق من العمل الأدبي ذاته ومستعملاً منهجية سوسيولوجية وفلسفية لإضاءة البنيات الدالة وتحديد مستويات إنتاج المعنى عبر أنماط من الرؤية"<sup>2</sup>. ينطلق غولدمان من فكرة أساسية وهي التشديد على العنصر الجماعي في كل عمل أدبي، فرغم أن العمل يرتبط - ظاهرياً - بالفرد/ المبدع إلا أن المقاربة النقدية البنوية التكوينية تنأى عن فرضيات الاستقلالية والذاتية والموهبة الفردية لتتبنى - أساساً - فرضية التأسيس الجماعي لكل نتاج إبداعي؛ فالأديب لا يكتب انطلاقاً من وعي مستقل بقدر ما يحيل وعيه ذاته إلى وعي جمعي؛ "فعلى المستوى الاجتماعي - التاريخي الذي يتضمن الإبداع الأدبي، تتجاوز الاكتشافات الأساسية للبنوية التكوينية الفاعل كفرد (إذ أنها جماعية) وتعالج الطابع المنظم لكل تصرف فكري أو عاطفي أو عملي يقوم به هذا الفرد الذي تجاوز فريدته"<sup>3</sup>.

لعل التشديد على الفاعل الجماعي في فلسفة البنوية التكوينية ما هو إلا نتيجة حتمية لتفسير رؤية العالم Vision du Mond المنبثقة عن العمل الإبداعي انطلاقاً من هذه الخلفية، والتي تتضح ضمن مبدأ الكلية الذي يحكم تصوّر الجماعة التي يمثلها الأديب ويترجم رؤاها، طموحاتها وأحلامها، لذلك "عندما تكشف العلاقة بين العمل الأدبي ورؤية العالم، ينبغي دراسة علاقة هذه الرؤية بالطبقات الاجتماعية التي عبر عنها، لأن العمل الأدبي ليس إلا شكلاً من أشكال الحياة الاجتماعية"<sup>4</sup>، أي أن تفسير رؤية العالم منوط باكتشاف الطبقة التي يمثلها الأديب ويعبر عن طموحاتها، وبالتالي فإن اكتشاف الطبقة يمثل بوجه ما عودة لترسيخ الطابع الأيديولوجي في الأدب، لذلك تعذر وجود منهجية إجرائية واضحة المعالم لمنهج غولدمان، رغم استنادها - نظرياً - لمقولات يمكن تجسيدها إجرائياً، وهو المنطق الذي به تمّ تجاوز منهج غولدمان في النقد الأدبي.

ولكي تتحقق رؤية العالم يشدد غولدمان على مبدأ التماثل الذي اتخذه بديلاً عن مفهوم الانعكاس الماركسي، وهذا التماثل يتحقق بين البنيات الإبداعية الروائية وبين البنيات الذهنية التي تتسم بالطابع الاجتماعي؛ ذلك أن غولدمان "يصرّ دائماً وبشدة على الفرق الكبير بين دراسة المحتوى الاجتماعي للعمل الثقافي. ودراسة هذا العمل كبنيات مناظرة ومماثلة للبنات الاجتماعية"<sup>5</sup>. ولعلّ هذا التقابل بين البنيتين يترجم - إجرائياً - من خلال التقابل بين مبدأي الفهم والتفسير اللذين ينطلق منهما كل محلّ بنيوي تكويني؛ ذلك أنها يشتغلان ضمن ازدواجية متناسقة؛ الأولى تُدرس ضمن نسق البنيات الداخلية، أما الثانية فإنها تتضمن الأولى، تشملها، ثم تتجاوزها؛ أي تفسير البنية الداخلية ضمن فضاء سوسيوقافي انطلاقاً من طموح تجاوز البنية الداخلية التي تبقى قاصرة عن كشف أبعاد الدلالة التكوينية ما لم يتم ربطها بالمعطيات الاجتماعية والتاريخية المحيطة بالظاهرة الإبداعية، وذلك لتفسيرها ضمن رؤية ما للعالم، فـ "لفهم بنية عمل فلسفي أو أدبي لا مناص من تناول بنية كلّ واحد منها بالدرس

والتحليل، ومحاولة معرفة مدى التناهما وتماسك أجزائها معها كلها، ولتفسيرها"<sup>6</sup>، رغم أنها مرحلة واحدة إجرائيا ولا يمكن الفصل بينها إلا نظريًا.

لعلّ الهدف الذي يتوخّى غولدمان تحقيقه - في إطار البحث السوسولوجي التكويني - هو محاولة الكشف عن البنية الدالة المتحركة في كلّ عمل فني، والتي يُشترط فيها أن تكون شمولية، باعتبارها انبثاقا مباشرا لمعطيات العمل الأدبي ضمن الوعي الجماعي الذي يمثله إبداعيا، ومن هذا المنظور فإنّ البنيوية التكوينية تحاول تقديم رؤية كلية لأجزاء العمل الأدبي، وذلك عن طريق هذه البنية التي تكون شرطا أساسيا في تحقّق وحدة العمل الإبداعي، ومحصلة لأنماط الوعي الجمعي الذي يكون ضرورة ملحة لتحقّق هذه البنية؛ إذ يؤكّد "غولدمان أننا لا نستطيع أن نفهم البنية الدلالية بشكل معتمق، إلا إذا ربطناها ببنى أوسع كالبنى الذهنية وروى الطبقات الاجتماعية للعالم والبنية الاجتماعية والاقتصادية التي تفرزها حقبة تاريخية معينة"<sup>7</sup>. وضمن هذا المبدأ - إذن - تحقّق البنيوية التكوينية فاعليّة التكامل بين البنى الدلالية التي تفرزها القراءة اللغوية، ومجموع البنى الفكرية التي يفرزها السياق التكويني ضمن وعي جماعيّ سوسولوجيّ لطبقة اجتماعية تعبيرا عن رؤيتها للعالم.

#### ثانيا: البنيوية التكوينية وأزمة المفهوم في القراءات النقدية العربية المعاصرة.

تحاول القراءات العربية المعاصرة - بأبعادها الجغرافية المختلفة - إمطة اللّثام عن المفاهيم النقدية الغربية، خاصّة منها ما تعلّق بالمفاهيم النظرية، ورغم أنّ هذه التجارب العربية أغنت الساحة النقدية لدى جمهور القراء، إلاّ أنها أحدثت - في الوقت ذاته - خلخلة في المفاهيم والمصطلحات النقدية، خاصة منها تلك الواردة إلى الثقافة العربية، ولعلّ أبرز مثال عن ذلك ما تمثّل له بالبنيوية التكوينية؛ والمتعلّق بالإشكال المفهومي في بعض القراءات العربية المعاصرة لإبستمولوجيا المنهج البنيوي التكويني الذي كان حصيلة لتأزم المصطلح البنيوي التكويني؛ ذلك أنّ "أزمة المصطلح لم تكن أبدا أزمة مصطلح نقدي عربيّ، فالمصطلحات التي أفرزتها الحداثة الغربية في تجلياتها في المدارس النقدية الحديثة من بنيوية وتفكيكية تثير أزمة عند قراء الحداثة الغربية ذاتها"<sup>8</sup>. وذلك انطلاقا من رؤية الناقد المصري "عبد العزيز حمودة"، فإذا سلّمنا بوجاهة الفرضية السابقة فإنّ أزمة المفهوم - التي نحن بصدد عرض إشكالاتها - ما هي إلاّ نتيجة محتومة لتذبذب المصطلح في ترتيبه الأصل، وبناء على ذلك ليس من الغريب تأزّمه في تربة مستقبلية/ عربية تتباين جذريا وثقافيا مع نظيرتها الغربية.

#### 1 البنيوية التكوينية؛ إشكالية الفهم والمفهوم:

انطلاقا من إشكالية مصطلح "البنيوية التكوينية" وإشكالية تبني مصطلح دون غيره - والذي يبرّره كلّ ناقد بحسب توجهه المعرفي والثقافي ورؤيته للمنهج - فقد اتجهت الفهوم المتعلقة بالمنهج البنيوي التكويني في القراءات العربية النقدية المعاصرة ضمن توجهين اثنين؛ ما بين القول بامتداد البنيوية التكوينية للبنيوية الشكلائية، وما بين القول باستقلالية المنهج البنيوي التكويني بذاته. وسنحاول - من خلال هذا العنوان - تقديم نماذج عربية لكلا التوجهين، والسعي لرصد أهم المنطلقات المعرفية التي أسست للبنية المفهومية عند النقاد العرب،

وكيفيات تجاوز الطرح البنيوي الشكلياني الذي امتد لمنهج غولدمان، ومدى تمثل كل ناقد لمفهوم المنهج ومسوغات تبني مفهوم دون غيره.

لا شك أن المعرفة تشكل نقاط تقاطع هامة في الفكر الإنساني، وهذا التواصل المعرفي يعود -زمنيا- للفلسفة اليونانية؛ فلسفة البدايات، ومثال ذلك أن أي نظرية معرفية في الفلسفة والنقد تمتد - وفي معظم الأحيان - لفلسفتي "أفلاطون"، و"أرسطو"، باعتبارهما منطلقا تمهيدا لكل أشكال المعرفة الحديثة، لذلك يمكن اعتبار الحديث عن وجود قطيعة معرفية مع النظريات السابقة حديثا غير مؤسس معرفيا، لاسيما في سياق المشهد الفكري المعاصر الذي يمنح الأولوية للتبديدات والتفسيرات التناسلية، حيث تحيل فكرة القطيعة ذاتها إلى مستويات من التعديل ومن خطابات المراجعة.

ولعل هذه التصورات المعرفية هي ما جعل بعض النقاد العرب يتجهون لتبني فكرة امتداد بعض المناهج والنظريات لبعضها البعض، وعلى سبيل ذلك - في السياق ذاته - الاعتقاد بامتداد البنيوية التكوينية للمنهج البنيوي الشكلياني؛ رغم أن هؤلاء النقاد ينطلقون من التصور النظري والتطبيقي في التدليل على ذلك، ومن ثم القول بالتوفيق بين المنهج البنيوي والمنهج الاجتماعي كتبرير لهذا الامتداد في زاوية ما من تمثيلات المنهج البنيوي التكويني.

وإذا أردنا الانطلاق من الأساس المعرفي لمنهج لوسيان غولدمان فإننا سنلاحظ أن المصطلح له شق يحمل معنى البنية من مصطلح "البنيوية التكوينية"، ومفهوم البنيوية هنا فُسّر تفسيرات متباينة في القراءات العربية لمفهوم المنهج؛ وبعض هذه التفسيرات كانت تؤوّل وفق اعتبار الدال المصطلحي على المنهج يتضمن دلالة تحيل إلى التيار البنيوي الشكلياني من ناحية، خاصة وأن مقولة الفهم الغولدمانية تركز على استخلاص البنية الداخلية للعمل الأدبي من ناحية ثانية، وهو ما يبدو نظريًا متوافقا والاتجاه البنيوي الذي يقوم "على فكرة جوهرية مؤداها أن الارتباط العام لفكرة أو لعدة أفكار مرتبطة بعضها ببعض على أساس العناصر المكونة لها. أما تلك العناصر فلا يعنى بها ذلك المنهج إلا من حيث ارتباطها وتأثرها بعضها ببعض في نظام منطقي مركب"<sup>9</sup>. وهو المبدأ العام المرتبط بالبنيوية التي تركز على مفهوم النسق البنيوي، والذي يرتكز - بدوره - على بنية اللغة المحايثة.

إلا أن التركيز الداخلي على النسق اللغوي في البنيوية Structuralisme - في أول ظهورها - لم يكن وليد العدم، فقد اعتبرت فلسفة البنيوية نمطا فكريا وأسلوبا حياتيا سائدا، بل كانت موضوعة رائجة في الدراسات اللغوية والنقدية، ومن ثم تحولت إلى براديجم معرفي قبل سقوطها (ثورة ماي 1968) أي قبل تأثرها في الستينيات، ففي الوقت الذي ركزت فيه الدراسات العربية على فلسفة البنيوية - في الدراسات النقدية - تجاوزت الثقافة الغربية / الفرنسية فلسفة البنيوية والتي كانت رمزا لقوالب فكرية ثابتة قيدت حركة الإبداع، أما في شقها اللغوي فقد تم تجاوزها بسبب تنكّرها للتاريخ وفصلها للبنية اللغوية الداخلية عن سياقاتها الاجتماعية، لذلك كان لمعنى البنية عند غولدمان دلالة مخالفة لما اعتبرته البنيوية أهم مبادئها؛ إذ انتصر منهج غولدمان

للتاريخ؛ ثغرة البنيوية؛ وأولت البنيوية التكوينية التاريخ اهتماما جادا واعتبرته شرطا أساسيا وفاعلا تكوينيا في رصد الحسّ الجماعي للعمل الإبداعي وأبعاده التكوينية التي تحاول الكشف عن مطامح الطبقة في أهدافها البعيدة، ومن المرجح أنّ استعمال غولدمان لمصطلح البنيوية كان بهدف إزاحتها عن دلالته التي استعملت لأجلها، مادام أنّ البنيوية كانت موضوعة رائجة، رغم أنّ منهج غولدمان يعتمد في مرحلة منه على هذا الكشف البنيوي الداخلي بهدف تحديد البنية الدالة؛ أي مرحلة الفهم. الأمر الذي يجعل منهج غولدمان يتداخل مع البنيوية، وهذا ما تبنّاه أنصار الامتداد البنيوي، بل "إنّ غولدمان وجد حرجا في استعمال كلمة بنية، وبالتالي كلمة بنيوية، لأنه كان يخشى السكون والثبات والجمود الذي يمكن أن تعنيه هذه الكلمة. ولذا فإنّ غولدمان يفكر ببنية ديناميكية متجددة دوما تلغي المعنى السليبي الذي كان يخشاه في البنية"<sup>10</sup>، كما تصورته البنيوية، وبالتالي فإنّ تصور البنية عند غولدمان لا يتوافق ومفهوم البنية في الاتجاه البنيوي، مما يعني تجاوزه للطرح البنيوي - رغم أنّ المنهج البنيوي يسبق زمنيا تكوينية غولدمان - لذلك سيكون لمعنى البنية في المصطلح مجرد الإبقاء المرحلي المؤقت للبنية لربطها فيما بعد بشقّها التفسيري، وهو ما يتوافق - مبدئيا - مع مرحلة الفهم التي تبقى مرحلة نصية، والتي ستحدّد لاحقا رؤية العالم من خلال تفسير البنية الدالة Structure Significative ، وللتنبه "لا بدّ أن نشير إلى أنه لولا اعتماد هذا المنهج على بنية ذات طبيعة تشكيكية وتركيبية لما نعتة غولدمان بالبنيوية، لسبب بسيط هو أنّ كلمة بنية قد سبقه إلى تحديدها ودراستها التيار اللغوي الشكلاني"<sup>11</sup>، كما يتّاه سابقا، ثم إنّ منهج غولدمان سيحدّد صفة هذه البنيوية، أي "التكوينية" والتي تعني في أبسط مفاهيمها تكوين العمل انطلاقا من محيطه الاجتماعي السوسيوثقافي الذي انبثق منه، فلا يكون الخروج النصّي وتفسيره دون ضبط بعده البنيوي الداخلي الذي سيكون عند غولدمان مجرد وسيلة لكشف البنية الدالة. أما إذا أردنا الحديث عن البرادغم المعرفي المتعلّق بالمرجعية المعرفية للبنيوية التكوينية، والبنيوية الشكلانية، فإنّ نقاط الاختلاف المرجعي - حتما - ستبّان في عملية التأسيس الفلسفي للمنهجين؛ فمنهج غولدمان يمتدّ فلسفيا لمبادئ الفكر الماركسي الذي مثله الفيلسوف المجري "جورج لوكاتش" Georges Lukac - الفيلسوف الأبرز في حياة غولدمان المعرفية - أما البنيوية فتمتدّ معرفيًا للسانيات والتي من أهم مبادئها دراسة اللغة دراسة وصفية محايثة.

لعل البنيوية التكوينية - انطلاقا من هذه التصورات - هي تجاوزه للطرح البنيوي الشكلاني الملتزم بحدود النسق والبنية، ذلك "أن الهجوم اليساري على البنيوية اللغوية كان مسؤولا بأكثر من معنى عن توجيه الأنظار إلى البنيوية التوليدية بوصفها بديلا يساريا عن قرينتها التي شاع وصفها بصفة "الشكلية" في الكتابات اليسارية بوجه عام وفي كتابات لوسيان جولدمان بوجه خاص"<sup>12</sup>. لذلك كانت البنيوية التكوينية بديلا تقديا وتجاوزا إيديولوجيا لطرح البنيوية في صرامتها النسقية وعدم تجاوز حدودها النصية.

### 1-1 البنيوية التكوينية والامتداد البنيوي الشكلاني:

إنّ استقبال المناهج النقدية الغربية في الثقافة العربية وتطويعها ثقافيا ليس ترفا فكريا، بقدر ما كان ضرورة ملحة لتعويض الفراغ المعرفي الذي عانته الثقافة العربية، والتي كانت قاصرة على إنتاج المعرفة وترويجها لأسباب

كثيرة من بينها تلك الأسباب المتعلقة بالظروف السياسية، الثقافية والاجتماعية التي شهدتها تلك الثقافة في القرن الماضي، ولعلّ الحاجة الملحة لتزويد النقد العربي بمجديد الساحة الغربية كان سببا في ظهور بعض الأزمات الخاصة بالمنهج كآزمة الفهم المتعلقة بالمنهج البنيوي التكويني، وفيما يلي سنقدّم بعض النماذج العربية التي تنطلق من فكرة امتداد البنيوية التكوينية للتوجّه البنيوي الشكلي، انطلاقا من القول بفاعلية التوفيق بين الطروحات البنيوية من جهة والطروحات الماركسية الاجتماعية من جهة ثانية، ومن النقاد الذين مثّلوا ذلك الاتجاه نجد:

#### 1-1-1 محمد بنيس:

يعدّ الناقد المغربي "محمد بنيس" من أوائل النقاد الذين تبوّأ منهج غولدمان، وذلك في دراسته الموسومة بـ: "ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقارنة بنيوية تكوينية"، وتعتبر تجربة بنيس من التجارب العربية التي تميّزت معرفيًا بالزيادة والسبق في عرضه لمطامح المنهج الغولدماني واختباره على المدونة النقدية العربية. ففي علاقة النص الإبداعي بالمنهج يذهب بنيس إلى ضرورة الوعي بخصائص النص وبنياته، مع مراعاة خصوصية المنهج المتبع، وذلك بتوجّه "نحو تبني منهج للقراءة، يستند إلى الوعي بالقوانين والبنيات الداخلية والخارجية للمتن والكشف عن الربط الجدلي بينهما، من أجل الوصول إلى النواة كما يقول تروتسكي وهو خروج صريح عن المناهج السائدة في قراءة الأدب على الصعيد العربي"<sup>13</sup>. الأمر الذي يوحى بتفضيل الناقد وتبنيّه منهجية مزدوجة في قراءة النص على المستوى الإجرائي لكونه يزاوج بين بعدين اثنين هما بنية الداخل اللغوي والخارج النصي ثم التوفيق بينهما، لذلك يؤكد بنيس على ازدواجية هذه الرؤية الإجرائية في مقارنة النص الأدبي. لعلّ تصوّر الذي يؤطر رؤية بنيس في اختياره للمنهج البنيوي التكويني ينطلق من ضرورة تولي المجتمع مساحة كافية لقراءة أي نص إبداعي، فالنص - أي نص - هو وليد لظروف اجتماعية، ورغم أن بنيس يوضح لنا هذه الضرورة الاجتماعية الملحة لعلاقة النص بالمجتمع إلا أنه يؤكد من جهة أنّ المنهج لا يختزل في التركيز على الفاعل الجماعي الذي ينطلق من المجتمع، بل "إنّ البنيوية التكوينية تتجاوز الدراسة الاجتماعية للمضمون دون الشكل عندما يعتبر أنّ قراءة النص يلزمها أن تنطلق من النص ولا شيء غير النص"<sup>14</sup>، ما يؤكّد أن منطلق الناقد الأساسي يجب أن يكون من النص، رغم تشديده في البداية على أهمية القراءة الاجتماعية، لذلك سيحوّل تركيزه - لاحقا - على القراءة الداخلية المكثفة، والتي بفضلها سيعتقد أيّ دارس لـ "بنيس" أنها هدف الناقد وغايته، وهذا ما يبدو واضحا في الجانب الإجرائي للدراسة. لكنّ الناقد يثير - بوعي منه - قضية تخصّ تحديد طبيعة الشعر الذي سيطبق عليه المنهج الغولدماني؛ إذ يختار نمطين معينين من الشعر هما (الشعر المعاصر والحر) اللذان يمثّلان فترة تاريخية محدّدة، ولكنه يقصي في الوقت ذاته نمطين شعريين هما؛ الشعر المكتوب باللغة الفرنسية، والشعر الشعبي؛ فإن برّر الناقد تخليه عن هذين النوعين بوعي منه، فإنّ فلسفة المنهج البنيوي التكويني تُناقض ذلك الإقصاء، وذلك لأنّ الشعر المكتوب باللغة الفرنسية - مثلا - يمثّل وعيا وموقفا طبقيا لزمرة جاعية بعد تحديد رؤيتها للعالم، وكذلك الشعر الشعبي الذي ينطبق عليه الأمر ذاته،

فكيف يتم إقصاء نمطين شعريين من شأنهما تفسير ظاهرة الشعر كما حددها الناقد واكتفى بالشعر المعاصر والحر؟ لذلك يبقى تبرير الناقد قاصرا وغير مقنع عموما.

ينطلق حديث الناقد - قبل ولوجه لمنهج غولدمان الذي يصطلح عليه بـ المنهج الجدلي الاجتماعي - نحو علاقة البنيوية التكوينية في ارتباط شقها اللغوي باللسانيات، وهذه الانطلاقة البنيوية - في تصور الناقد - ليست اعتباطية؛ إذ يبدو أنّ التأسيس التمهيدي عنده ينتج من الأصل إلى الفرع، وهو ما يشير إلى اعتبار البنيوية التكوينية فرعا من فروع البنيوية التي تعتبر تمهيدا تأسيسيا لبقية المناهج، وهنا يؤكد العلاقة المتصلة التي تجمع بين البنيوية والبنيوية التكوينية كرحلة أولى، كما يحاول في مرحلة ثانية استدراك البعد المعرفي لفلسفة البنيوية والتيار الاجتماعي، فيذهب إلى إبراز الفرق بينها رغم اتصالهما في فلسفة البنيوية التكوينية ذات البعد البنيوي.

ثم إنّ البنيوية التكوينية - حسب الناقد - وإن عارضت البنيوية فإنها معارضة يصحّ أن نطلق عليها معارضة جزئية، وهذا بسبب فلسفة البنيوية المتعلقة بالتحليل النصي، والتي لا تتجاوز بنياته الداخلية غالبا، لذلك كان المنهج البنيوي التكويني استدراكا لهذه الثغرات التي وقعت فيها البنيوية، لذلك يُقَيّ عليها مرحليا؛ إذ يعتقد الناقد "أنّ النص الأدبي، من خلال المنظور الذي يعتمده النقاد المؤمنون بعلم الاجتماع الجدلي، يتوقف عن الظهور كلعبة لغوية، ويتفتح على مستوى أعلى من الوعي والإدراك، فيحوّل النص إلى رؤية للعالم، ذات دلالة اجتماعية، لأن هذه الرؤية هي التي تنظّم فضاء النص"<sup>15</sup>.

ويظهر الجانب الإجرائي للمنهج البنيوي التكويني عند الناقد من خلال التفاعل الازدواجي بين القراءة الداخلية للمتن الشعري من جهة، وتفسيره - من جهة أخرى - انطلاقا من السياق الذي نتج عنه، كما يبرز الحضور البنيوي - في تحليل الناقد - من خلال توظيفه - في تحليل البنيات اللغوية - لما يستلزمه البنية السطحية؛ أحد قوانين الممارسة البنيوية للغة الإبداعية، لذلك يعني "بالبنية السطحية مجمل المظاهر الخارجية للنص الشعري، وتشمل اقتصاد النص، من النواحي الزمانية، والبصرية والنحوية، نظما وصرفا، والبلاغية، أي ما يركّب النص كلفة ذات خصوصية في المجال العام للغة"<sup>16</sup>. وبذلك تبدو قراءة البنية السطحية قراءة بنيوية خالصة انطلاقا من مساءلة البنيات اللغوية التي تشكّل منها كلّ نصّ إبداعي شعري. إذ يربط الناقد هذه البنية السطحية ببنية أشمل وهي البنية العميقة، ويجعلها منبثقة عنها ومتراصة بها من خلال قوانينها "وهي عنده: التجريب - السقوط - والانتظار - الغربة، وقد استخلص كل محور من إحدى البنيات السابقة"<sup>17</sup>، بعد قراءته للبنية الداخلية التي تشمل البنيتين السطحية والعميقة، لذلك يرتبط الفهم - عند الناقد - ببنية أوسع تنطلق من تفسير البنيات اللغوية التي تتحوّل لبنيات دالة تتظهر عبر السياقات الثقافية، إذ لا تبدو قراءة الناقد بعيدة عن اتصالها البنيوي في تركيزه على البنيتين المنبثقتين عن الوعي اللساني في جوهرهما.

وبهذا التصور ينطلق الناقد من التحليل البنيوي الشكلي، ويراهن عليه كخاصية فنية تتمظهر في البنية اللغوية، و"تمثل" مقارنته البنيوية التكوينية "في محاولة فهم" البنية الداخلية "للمتن" الشعري الذي اختاره،

عن طريق إيجاد بنيات فنية جزئية لها دورها ومساهمتها في تركيب البنية العامة؛ وفي محاولة "تفسير" تلك البنية عن طريق إدماجها في بنية ذهنية ماثلة في المجتمع، وعن طريق إدماج الاثنين في بنية طبقية تاريخية أكثر اتساعاً منها وأشمل لهما"<sup>18</sup>.

إلا أنّ غياب رؤية واضحة المعالم عند الناقد - في تفرقه بين المنهج البنوي والبنوي التكويني باعتبارهما متداخلين على المستوى الإجرائي - حال دون تبلور اتجاه واضح المعالم عنده؛ إذ توحى رؤيته الخاصة بالمنهج البنوي التكويني بالمزاوجة بين المنهجين، فـ "رغم الإشارة التي وردت في عنوان الدراسة (البنوية التكوينية)، إلا أنّ م. بنيس لم يلتزم بتطبيق المنهج الذي أعلن عنه واكتفى بالتركيز على المنهج الاجتماعي الجدلي، وعلى المنهج البنوي الشكلي. واتضح من هذه القراءة أن تصور "محمد بنيس" للمنهج "البنوية التكوينية" لم يخرج عن التركيب والجمع بين المنهجين الاجتماعي الجدلي والبنوي الشكلي، وفي هذا تلفيق يدلّ على قصور في فهم المنهج "التكويني" وفق تصور "غولدمان"<sup>19</sup>.

### 1-2 سعد البازعي وميجان الرويلي:

رغم التجاذبات الفكرية والنقدية التي شهدتها المفهوم المتعلقة بالبنوية التكوينية -إلا أننا - وبالعودة للناقدين "سعد البازعي" و"ميجان الرويلي" سنلاحظ أنّهما يربطان المفهوم المعرفي بالمنهج بالبنوية؛ ذلك أن البنوية التكوينية -حسبهما- ليست إلاّ فرعاً من فروع البنوية، ونجد أصداء هذا الرأي في دراستها النقدية الموسومة بـ: "دليل الناقد الأدبي"، إذ يعتبر أن "البنوية التكوينية أو التوليدية، فرع من فروع البنوية نشأت استجابة لسعي بعض المفكرين والنقاد الماركسيين للتوفيق بين طروحات البنوية في صيغتها الشكلائية، وأسس الفكر الماركسي أو الجدلي، كما يسمّى أحياناً في تركيزه على التفسير الواقعي للفكر والثقافة عموماً"<sup>20</sup>، ورغم هذا التأكيد على اتصال المنهجين إلا أنّ الناقدين لم يفضّلا كثيراً في الأطر الفكرية والفلسفية لفلسفة البنوية التكوينية التي تعود للفلسفة الماركسية، فإذا كانت البنوية ذات روح علمية من خلال امتدادها للسانيات فإن البنوية التكوينية ذات خلفية ماركسية هيكلية.

إنّ الربط بين البنوية التكوينية -كمهج نقدي له مقولاته ومبادئه الواضحة في التحليل السوسيولوجي- والبنوية- التي تختلف مع البنوية التكوينية فلسفياً وإجرائياً- لا يعدو أن يكون إسقاطاً معرفياً، وإذا توافق منهج غولدمان مع البنوية فإنّه لا يتجاوز تجريدًا مرحلة التركيز على البنية النصية الداخلية، ويتأكد هذا التباين في جوهره من حيث النظر لطبيعة البنية في حدّ ذاتها، والتي تكون في البنوية التكوينية ذات طبيعة ديناميّة متطورة ومنفتحة على مختلف الأبنية الفكرية والثقافية. والتي تكون ذات طبيعة ساكنة غير فاعلة في البنوية، ومن الملاحظ أنّ رؤية الناقدين للمنهج البنوي التكويني تفتقد لغياب الأداة النقدية التحليلية في النظر للمنهج والاكتفاء بالتركيز على الجانب السطحيّ المعرفيّ منه دون التفصيل والتعمّق في المنهج التكويني، والذي يبدو في فلسفته منافياً للبنوية، أضف إلى ذلك أنّ الناقدين ذوا ثقافة أنجلوسكسونية، على اعتبار أنّ المشاركة - عموماً - يقرؤون ويترجمون من اللغة الإنجليزية بالدرجة الأولى، ولذلك سيوقع الابتعاد عن الأصل في إشكالات

تأويلية ومغالطات معرفية، وربما هذا ما يفسر كونها "اعتبرا البنيوية التكوينية فرعا من فروع البنيوية، وهذا رأي ضعيف يتم عن عدم تمثّل الباحثين للمرجعية الفكرية المنهجية للبنيوية التكوينية، فهي لا تخرج في نظرها على أن تكون نوعا من التركيب أو المزج بين منهجين ( البنيوية الشكلانية والمنهج الاجتماعي الجدلي)، وهذا لا ينسجم مع التوجهات النظرية والمبادئ الأساسية التي أرستها البنيوية التكوينية"<sup>21</sup>.

### 3-1-1 يوسف وغليسي:

يعتبر الناقد الجزائري "يوسف وغليسي" من النقاد الذين قدّموا قراءة حول المنهج البنيوي التكويني، وقبل ذلك كانت للناقد محمود جادة في قضية عرض إشكالية المصطلح النقدي في دراسته الموسومة بـ "إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي" وقد كانت هذه الدراسة مرجعا هاما في دراسات النقاد والباحثين؛ إذ قدّم الناقد نماذج لإشكالية المصطلح النقدي، كما وضح العلاقة المتلازمة بين المنهج والمصطلح، إذ هي حسبه "علاقة وثيقة يجدر بالناقد وصلها، إنهما صنوان ليس في وسع أحدهما أن يستغني عن الآخر أثناء الفعل النقدي"<sup>22</sup>. ورغم وعي الناقد بوجود علاقة تجمع بين الأمين واعتبارهما متلازمين إلا أن رؤيته للمنهج البنيوي التكويني تكسر هذه العلاقة برؤية مزدوجة بين المصطلح ومفهومه، والذي يبدو عند الناقد مرتبطا ارتباطا وثيقا بالتوجه البنيوي، ففي عرضه للحقل البنيوي يُدرج الناقد البنيوية التكوينية ضمن تيار البنيوية ويجعلها أحد تفرعاتها؛ ذلك أنّ المنهج البنيوي التكويني عند "وغليسي" يتفرّع لثلاثة اتجاهات بنيوية، "حيث تتركز البنيوية الشكلانية على الدوال، مثلما تتركز البنيوية الموضوعاتية على المدلولات، بينما تستند البنيوية التكوينية إلى مرجعية العلاقة الدلالية وسياقاته الاجتماعية"<sup>23</sup>. ومن ثمّ يقدم الناقد رسدا مفصلا عن الاتجاه البنيوي الشكلاني وعن أبعاده اللسانية/اللغوية وصولا إلى البنيوية التكوينية التي جاءت لسدّ ثغرات المنهج البنيوي ولتدارك الانغلاق اللغوي المحايث، "فكانت البنيوية التكوينية تهجينا واضحا للهيكل البنيوي بالروح الاجتماعية"<sup>24</sup>. لكنّ صفة هذا التهجين وطبيعته - وكذا أسسه - غير واضحة المعالم عند الناقد؛ لاسيما أن طروحات غولدمان ذاته - في هذا الصدد - لم تحل إلى الوضوح الميتودولوجي الكافي، وهي نفسها ما فتئت تحتاج لمساءلات نقدية عميقة بدا أن الناقد وغليسي قد تجنّب الكثير منها.

وبناء عليه تختزل البنيوية التكوينية - بالنسبة للناقد - في كونها فرعا من فروع البنيوية لكنها تحمل صفة الروح الاجتماعية، لتبدو القراءة المفهومية للمنهج بذلك متذبذبة إذا ما قورنت بمفهوم المنهج التكويني، لذلك نجد أنّ مجرد اختزال المنهج في الامتداد المعرفي اللساني غير كاف لفهم وتمثّل منهج له مقولاته التي تتخذ من النص نسقا تكوينيا منبثقا عن وعي جماعي تتركز عليه فلسفة البنيوية التكوينية. بالإضافة إلى غياب رؤية مرجعية تخصّ طرح البرادغم المعرفي للمنهج البنيوي التكويني رغم ثقافة الناقد الفرانكفونية La Francophonie.

لاشكَّ أنّ هذه الإشكالات المنهجية - التي تخص اعتبار البنيوية التكوينية امتدادا للبنيوية في تصوّر بعض القراءات العربية - لا يمكن اعتبارها تصوّرات وليدة العدم، أو قراءات غير معرفية، بل هي حصيلة القراءات الثقافية التي تخصّ الركيزة المعرفية للمنهج أولا وللتقّاد ثانيا.

## 1-2 البنيوية التكوينية منهج قديم مستقل:

يتّضح هذا الموقف من خلال رؤية أساسية تعود خلفيتها للمنهج الاجتماعي الذي يعتبر - حسب هذا التوجه - المنطلق الذي سارت على خطاه البنيوية التكوينية، وذلك باعتبار المنهج مستقلا في رؤاه ومقولاته الإجرائية عن البنيوية، ومن هؤلاء نجد:

### 1-1-2 حميد الحمداني:

يعدّ الناقد المغربي "حميد الحمداني" من أوائل الممثلين للمنهج البنيوي التكويني سواء في شقّه النظري أو الإجمالي؛ إذ برهنت دراساته الأولى في هذا المجال عن تمثّل الناقد - نظريا وإجرائيا - للخلفيات والمنطلقات الفكرية والمنهجية للمنهج، حيث يبدو أنّ تأسيسه المعرفي مزوّد بترسانة فكرية ذات انطلاقة معرفية، تتعلّق بتقديم صورة واضحة المعالم حول النقد السوسولوجي منذ مراحله الفكرية. ورغم أنّ الحمداني لم يتطرق بطريقة خاصّة وواضحة لفكرة استقلال المنهج البنيوي التكويني أو امتداده للمنهج البنيوي - بداية - إلّا أنّه يحدّد المجال الذي تنتمي إليه رؤية غولدمان فـ" قد أعطى سوسولوجيا الرواية مظهرا شديدا المرونة، دون أن يتنكر أو يتخلّى عن المبادئ الفلسفية الأساسية التي انطلقت منها الأشكال السابقة لسوسولوجيا الرواية، وهي مبادئ الفلسفة المادية"<sup>25</sup>. والتي كانت سببا معرفيا في تطوّر البحث السوسولوجي الروائي الذي أخذ بعدا منهجيا أكثر نضجا مع غولدمان، بالإضافة لتجاوزه - معرفيا - جهود الماركسية في محاولة التنظير الروائي الذي بقي حبيس الفاعل الإيديولوجي الذي سيطر على الإنتاج الأدبي ردحا من الزمن.

وفي أقدم دراسة قدّمتها في إطار النقد البنيوي التكويني يوضّح الناقد معنى البنية في المنهج الغولدماني، والتي تتمثّل في كشف البنى اللغوية التي يرتكز عليها كل عمل إبداعي؛ إذ "إن الحديث عن "البنية" يسمح في نطاق المذهب البنيوي التكويني- بالتعامل المحلي مع الأدب (ومنه الرواية) كبنية قائمة بذاتها يمكن تحليلها داخليا وكشف العلاقات المتحمكة في تكوينها"<sup>26</sup>. ولكنّ الناقد - رغم حديثه واعترافه بضرورة القراءة الداخلية والتي يطلق عليها مرحلة الفهم- لا يتوانى في نقده لرؤية "غولدمان" التي بدت - حسب- قاصرة في طبيعة وكيفية تطبيق الآليات الإجرائية لهذه المرحلة، وكيف نحلّلها وعلى أيّ أساس نكشفها، وفي ذلك يعتبر "أنّ قول "غولدمان" بإمكانية دراسة الأعمال الروائية من الداخل بقي مجرد مبدأ نظري ليس له ما يوازيه من الوسائل، والتقنيات التي تسهّل إنجازها على مستوى التطبيق"<sup>27</sup>. وهذه البنية التي تحدّد القراءة الداخلية عند غولدمان هي كشف عن البنية الدالة التي تعدّ مقولة أساسية في المنهج، وبذلك يثمن الناقد هذه الانطلاقة الداخلية من خلال اعتبار "أنّ هذا التنظيم الذي يعطي الأسبقية في التحليل لدراسة البنية الداخلية للتصّ الروائي يعتبر

تقدّمًا كبيرًا في إطار النقد الجدلي نحو الاهتمام بخصوصية الإبداع الروائي<sup>28</sup>. وهي خطوة جديدة أهملتها الدراسات الماركسية السابقة.

لعلّ الناقد - ومن خلال رؤيته التي تنتقد افتقار المنهج البنيوي التكويني لأدوات واضحة المعالم في عملية التحليل - يحاول استدراك هذه الثغرات الإجرائية من خلال دراسته التطبيقية الموسومة بـ "من أجل تحليل سوسيوثقافي لرواية المعلم علي نموذجاً" التي طُبّق فيها المنهج البنيوي التكويني، بل إنّه استفاد من النقد البنيوي في تحليله. وهذا ما قد يبدو متناقضاً مع ما سيوضحه في دراسته اللاحقة (الفكر النقدي الأدبي المعاصر) التي ينفي فيها الدلالة البنيوية عن المنهج التكويني؛ إذ يعتبر الناقد "أنّ كلمة البنيوية في مصطلح "البنيوية التكوينية" ليس لها أيّ دلالة مطابقة مع الاتجاه البنيوي الذي تأسّس على لسانيات "دي سوسير فهي، تكتفي بالإشارة إلى ضرورة الاهتمام بالنسق النصّي دون أن تمتلك أيّ علم إجرائي يساعدها في مجال التحليل، إنها في الواقع مجرد "بنيوية حدسية" "Structuralisme intuitive"<sup>29</sup>. لذلك يمكن القول إنّ التحوّل المعرفي في رؤية الحمداني ليس تناقضاً معرفياً بقدر ما هو تطوّر معرفي عند الناقد، فالدراسات التي يوحى فيها بوجود صلة بين البنيوية ومنهج غولدمان تمتدّ زمنياً من الثمانينيات إلى التسعينيات، أمّا الدراسة المعاصرة التي تدحض امتداد البنيوية التكوينية للمنهج البنيوي فقد صدرت سنة 2014، وهي من الدراسات الحديثة جداً إذا ما قُورنت بما سبقها، لـ "يتضح ممّا سبق أن "الحمداني حميد" تمثل مسألة المفهوم (البنيوية التكوينية) تمثلاً ينسجم مع التوجهات النظرية التي أرساها "غولدمان" لمنهجه، فلم يتصوره على أنه جمع بين المنهج البنيوي الشكلي والمنهج الاجتماعي الجدلي كما رأيناه عند "محمد بنيس"<sup>30</sup>. ورغم أن تصور الحمداني قد جاء متأخراً إلا أنه يفصح عن مساءلات نقدية أكثر عمقا وموضوعية.

## 2-1-2 جمال شحيد:

يعتبر الناقد والمترجم السوري "جمال شحيد" من أوائل الذين قدموا رؤية نقدية في سياق استقبال المناهج الغربية، وخاصة منها المنهج البنيوي التكويني؛ إذ يمكن اعتبار تجربته من النماذج التي احتفى بها الناقد لتوثيق الصلة بمنهج غولدمان في الثقافة العربية، ولذلك لا تكمن أهمية شحيد في السبق فقط، بل إنّ المتأمل لدراسته النقدية يلحظ القدرة المعرفية الرصينة التي انطلق منها في تمثّل المنهج؛ إذ تمكّن شحيد من قراءة غولدمان في لغته الأصل؛ الأمر الذي تؤكده قائمة المصادر والمراجع التي تمثل مرجعاً هاماً لأيّ باحث في النقد السوسولوجي، ويذهب الناقد - في كافة تحليلاته النقدية حول المنهج - إلى اعتبار البنيوية التكوينية منهجاً نقدياً قائماً بذاته، ونلمس ذلك من خلال تفريقه الواضح بين المنهج البنيوي والبنيوية التكوينية في قضية النظر للبنية؛ إذ تبه "في هذا الشأن أنّ هذه الكلمة أخذت أبعاداً كثيرة في النقد الحديث، مما يدعو أحياناً إلى اللبس والغموض. لذا ينبغي إحالة هذه الكلمة إلى المذهب الفكري والنقدي الذي يستعملها، إن توخينا الوضوح. ونستطيع التمييز بين مذهبين رئيسيين هما المذهب الشكلي والمذهب الإيديولوجي"<sup>31</sup>. وهذا التمييز الواضح عند الناقد في استعمال كلمة بنية في التوجيه من شأنه تأكيد التباين والفرق بين المنهجين عند الناقد، بل يتأكد

ذلك من خلال تفصيله لمعنى البنية في التوجيهين، إذ "يركّز الأول على البنية من حيث هي ساكنة وغير متحركة في الزمان والمكان، وكأنها معزولة عن السياق التاريخي الاجتماعي الثقافي الذي نشأت فيه"<sup>32</sup>. أما ثاني معاني البنية فيتبنّاها المنهج البنيوي التكويني، والتي "لا تفهم بحدّ ذاتها خارج حدود الزمان والمكان، وإنّما من خلال تطوّرها وتحركها وتفاعلها وتناظرها داخل وضع محدّد زمانيا ومكانيا. وهذه هي مقولة ماركسية واضحة"<sup>33</sup>.

وهذا تأكيد واضح على أنّ الناقد يفرّق بين مفهوم البنية في التوجيهين؛ على اعتبار أن البنية في البنيوية التكوينية هي بنية غير مقيدة تخضع لجدلية التفاعل بين البنى حسب المفهوم الماركسي؛ إذ هي بنيوية فاعلة وذات دلالة اجتماعية، لذلك ترتبط عند غولدمان بالتكوين الذي سيحوّرها من خلال البنية الثقافية والاجتماعية، فالنسبة للناقد يتضح أنّ البنية - بالمفهوم الغولدماني - هي البنية المتطورة عن وضع لغوي متعلّق بالبنيات الثقافية مادام المبدأ الذي يتوافق مع هذه الرؤية هو التكامل الذي نجده بين مفهومي الفهم والتفسير.

لقد وضح الناقد موقفه المعرفي الذي يميّز بين التصوّر البنيوي والبنيوية التكوينية من خلال إجراء المقارنة بينهما، وذلك انطلاقا من النقد الذي وجهه أنصار المنهجين لبعضهما؛ إذ "يرى ممثلوا البنيوية غير التكوينية (أمثال ليفي ستروس، ميشيل فوكو، غريماس، تودوروف، بارت، التوسير، دريدا، وغيرهم). أن التركيز يجب أن يعالج البنى الموضوعية في النص ويميلون مقولة الفاعل، كأنّ البنى هي التي تخلق الأحداث التاريخية. فاستبدلوا العلة بالعلول والسبب بالمسبّب واكتفوا بالنتيجة دون ربطها بأسبابها"<sup>34</sup>. الأمر الذي يؤكد على اختلاف المنهجين جذريا، فإذا افترضنا أن البنيوية التكوينية أحد فروع البنيوية فمن المفروض ألاّ نجد هذه الانتقادات التي طالت منهج غولدمان من طرف أنصار البنيوية، إضافة إلى ذلك فإنّ العامل التاريخي يرفضه منهج غولدمان، لأنّ "هذا بالنسبة لغولدمان خطأ يضيّع علينا فرصة فهم النص من وجهة نظر اجتماعية وتاريخية. إذ يجب أن يكون خلف كل جملة في النص فاعل لا يجوز نسيانه والإغفال عن دوره، إذا أردنا أن نفهم النص بشكل إنساني، لأنّ الإنسان هو المحرك الوحيد للتاريخ. ففي نظره هناك صلة وثيقة بين النص والفاعل والتاريخ"<sup>35</sup>. ثم في مرحلة ثانية يوضح الناقد اختلاف مبدأ النظر لجوهر الأدب بالنسبة للبنيوية التكوينية والبنيوية، وتبعاً لذلك تتباين ملامح التساؤل بينهما حول طبيعة الدراسة النصيّة؛ إذ "يحاول الأول منها أن يربط الأدب بالفلسفة أو بالإيديولوجيا، بينما يعتبر الثاني أن الأدب عالم مستقل له تقنية ذاتية يجب اكتشافها من الداخل. أي أن هناك سؤالاين مختلفين مطروحين على النص: كيف (بالنسبة للبنيويين الشكليين) والماذا (بالنسبة للبنيويين الماركسيين)"<sup>36</sup>.

وفي إطار حديثه عن منطلقات المنهج الغولدماني يوضح الناقد طبيعة الممارسة الإجرائية التي تخصّ المنهج، وهي في ذلك تتناقض والتوجّه البنيوي؛ وذلك ما يتعلق بالانفتاح على السياق الذي شكّل العمل الأدبي، وهو ما يؤسس صفة التكوينية في المنهج، وهذه الجزئية هي ما يرفضها التوجّه الشكلي في عزله الظاهرة الأدبية، ف "هناك حقيقة أصبحت مسلمة عند غولدمان، وهي أنّنا لا نستطيع أن نزل أيّ عمل أو آية مسألة نظرية من

السياق الثقافي الذي نشأ فيه هذا العمل وترعرع وتطور ضمنه. ويضيف إلى ذلك أن كل مسألة خاصة يجب فهمها من خلال الإطار العام المحيط بها أو من خلال تاريخ المجتمع الذي نشأت فيه"<sup>37</sup>.

إنّ الترسية المفصلة عند الناقد في قراءته للمنهج تؤكد على التفريق الواضح الذي تبناه في تمييزه بين منهج غولدمان والبنوية، وذلك من خلال عرضه للفرق الجوهرية بينهما؛ إذ يتصور الناقد أن المنهج البنوي التكويني منهج قائم بذاته وليس امتدادا للمنهج البنوي، بالإضافة لتمثله للخلفيات الفلسفية والمعرفية.

### 2-1-3 نور الدين صدار:

ومن النقاد الذين يذهبون إلى القول باستقلالية المنهج الغولدماني الناقد الجزائري "نور الدين صدار"، إذ يحاول تقديم نموذجه الفكري والمعرفي الخاص بالمنهج، والذي يبدو - في دراسته الموسومة بـ "البنوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة" - من النقاد الذين لهم رؤية خاصة ومتباعدة عن بقية القراءات والتصورات المرتبطة بالمنهج، وذلك من خلال دراساته المحيطة بالمنهج وخلفياته المعرفية، الفكرية، والفلسفية؛ إذ يرى أن المنهج لا ينفصل عن خلفيات تصل إلى الفلسفة المثالية والوضعية، إذ "إن المشروع البنوي التكويني هو ثمرة القراءة الواعية في الفكر الفلسفي المثالي والفكر الوضعي، وفكر "كانط" و"هيجل" و"هيدجر" فضلا عن أبحاث "ج. لوكاتش..."<sup>38</sup>. ل يبدو بذلك أنّ فلسفتي المثالية والوضعية لم تقطعا الصلة بالفلسفات التي جاءت بعدهما، ففلسفة النظرية الأدبية والمناهج النقدية لم تبلور إلا في ظلّ هاتين الفلسفتين، وانطلاقا من ذلك - إذن - يتجاوز الناقد هذه الرؤية بالعودة إلى الفكر المباشر الذي أثر في قراءة غولدمان وفي طريقة ابتداعه لمنهجية خاصة لمقاربة الإبداع. وهذه القراءات هي الحصيصة المعرفية للفكر الماركسي.

وبما أنّ البنوية التكوينية هي رؤية منهجية لتتبع مسارات الإبداع فإنّ هذا الإبداع مشروط بتحقيق انسجام وتوافق في الرؤية من خلال الهدف الذي تنشده البنوية التكوينية - حسب الناقد - انطلاقا من رؤية غولدمان. لتبدو في الدراسة ذاتها قدرة الناقد في قراءته لأهم التجارب النقدية، الشعرية، والسردية التي قاربت المنهج عربيا، وفي هذا العرض يبدو الناقد متحكما في أدوات المنهج وفلسفته كما قدّمها وطوّرها غولدمان نفسه، لذلك يقدّم في الدراسة - نفسها - نقدا للتجربة العربية في استقبال المنهج.

وقد ساهم في الاتجاه ذاته بعرض توضيحي وضح فيه إشكالية المصطلح البنوي التكويني دون الاكتفاء بتقديم نماذج عن أهم مصطلحات المنهج والخلط الحاصل في المجال ذاته، بل كان من أهم الدّراسين والمنبّين لإشكالية الفهم المتباعدة المتعلقة بالمنهج، رغم أنّ إشكالية المفهوم بقيت إشكالية نظرية تجريدية، ولم تركز عليها الدراسات العربية، بقدر ما ركزت على إشكالية المصطلح الشائعة في استقبال العرب للثقافة الغربية المتعلقة بالمناهج النقدية، وقد تبلور - حسب اعتقاد الناقد - "اتجاهان متباينان في تعاملهما مع المنهج الغولدماني مجال رأى في البنوية التكوينية على أنها مزج وتركيب بين منهجين، دون مراعاة للضوابط المنهجية، ومن هذا المنظور كان الاختلاف والتباين بين القراءات النقدية التي رصدتها المدونة النقدية"<sup>39</sup>، وهو التيار الذي قدّمنا له في العنوان السابق، والذي يبقى قويّ الحضور في النقد العربي وله حججه وبراهينه ونتائج التي لعلّ أهمّها التعامل

مع المنهج الغولدماني باعتباره توفيقا بين منهجين اثنين؛ البنيوية والمنهج الاجتماعي. "أما الاتجاه الثاني، وهو الاتجاه الذي وعى المنهج التكويني تنظيرا وممارسة وتمثله على أنه منظومة منهجية منسجمة ومتكاملة بفاهيمها وأدواتها وآلياتها الإجرائية"<sup>40</sup>.

وقد كشف الناقد جملة من الثغرات التي وقعت فيها بعض التجارب العربية سواء في مقارنة المنهج أو القراءات التي اندرجت ضمن نقد النقد مثل وقوع الناقد المغربي "محمد خرماش" في ثغرتين تثبت لهما الناقد من خلال تعليقه (خرماش) على مقارنة "بنيس" في الشعر المغربي المعاصر عندما أكد "خرماش" اطلاع "بنيس" على النموذج التحليلي لكتاب "الإله الخفي" Le Dieu cache لـ غولدمان، وعلى أساسه بنى عليه رؤيته الإجرائية للمنهج. لكن الناقد "نور الدين صدار" ينفي اطلاع بنيس على كتاب "الإله الخفي"، ذلك "إن قول "محمد خرماش" على أن "محمد بنيس" نسج كتابه على منوال كتاب "غولدمان"، يبقى مجرد افتراض، إذ لم يتأكد بصفة قطعية على أن "بنيس" قد اطلع على كتاب (الإله الخفي) فكيف يمكن الجزم بهذا القول مع العلم أن "بنيس" لم يذكر هذا الكتاب على الإطلاق في قائمة المراجع والمصادر التي اعتمد عليها؟"<sup>41</sup>.

ورغم اجتهاد الناقد "نور الدين صدار" في هذه القراءة إلا أن هذا الحكم يبقى نسبيا لاعتبارين اثنين: أولهما أن تجربة "بنيس" من أولى التجارب العربية التي يعتد بها، والتي حاولت تطبيق منهج غولدمان على النص العربي الشعري ذي الخصوصية المخرجة من جهة، ومن جهة ثانية إن تجربة بنيس في تطبيق منهج غولدمان تعتبر تجربة بكرة شجعت النقاد العرب على اقتحام المنهج تبعا بتجربته التي طرقت باب الصدارة مع بعض التجارب العربية، وثاني هذه الاعتبارات ما هو خاص بالعامل الثقافي، على اعتبار أن ثقافة الناقد (بنيس) ثقافة فرانكفونية؛ فرغم أنه لم يستشهد بكتاب غولدمان "الإله الخفي" في لغته الأصل "الفرنسية" - وهذه حقيقة كما أكدها "نور الدين صدار" - إلا أنها تبقى مجرد افتراض مادام الناقد "محمد بنيس" قارئا للغة الفرنسية، لذلك ليس من المستبعد اطلاعه على الكتاب في لغته الأصل (وهذا وارد جدا) ليكون بنيس - بذلك - محيطا بملامح المنهج عن طريق تطبيق مقارنته البنيوية التكوينية على المدونة الشعرية التي حافظ فيها على خصوصية النص العربي المغربي بالدرجة الأولى.

ثم إن المتنبع للمسار الرؤيوي للناقد نور الدين صدار - من خلال تصوّره للمنهج البنيوي التكويني - يجده يؤكد نفيه القاطع بشأن اعتبار البنيوية التكوينية مرحلة ترتبط بالتحليل البنيوي، وهذا ما يرفضه الباحث مطلقا، فالبنيوية التكوينية - حسب - ليست امتدادا للمنهج البنيوي؛ إذ قد "نتج عن هذا الفهم المرتبك انحراف في قراءة وتطبيق المصطلحات وآليات المنهج البنيوي التكويني، مما أدى إلى قراءة "مزدوجة" للعمل الإبداعي (شكلي واجتماعية)، لا قراءة وفق منهج ذي رؤية شمولية. ومن نتائج هذه القراءة تمثل البنيات العميقة الدالة على أنها انعكاس آلي للواقع"<sup>42</sup>. رغم أن هناك فرقا وسيعا بين الانعكاس والتأثر الذي جاء به غولدمان وطمح من خلاله لتعديل وتجاوز الفرضيات والطروحات النقدية التقليدية.

خاتمة:

تطرح التجارب النقدية العربية المعاصرة - في سياق استقبال المنهج البنوي التكويني - إلى تقديم مبررات معرفية وإستيمية ترتبط بالمنهج، وذلك وفق رؤى نقدية تتوخى استنبات المنهج الغولدماني في الثقافة النقدية العربية انطلاقاً من براديجمات تأويلية متعددة، لذلك بدت القراءات العربية مساءلات نقدية لا تحيل إلى حقائق يقينية بقدر ما تحيل إلى فرضيات لعل أهم ما يميزها هو نسبية نتائجها. وقد طمحت هذه الورقة البحثية - أركولوجيا - إلى رصد ما يمكنه أن يؤهل لتبرير فرضية وجود ملامح نقدية تؤسس لبراديجم نقدي عربي محدد زمنياً بما وُسم بالنقد العربي المعاصر ومحدد تيماتياً بما وُسم بالبنوية التكوينية، ولعل أهم تلك الملامح النقدية التي تؤسس لفرضية تكون براديجم نقدي عربي منوط - أساساً - باستقبال المنهج البنوي التكويني ما يلي:

- تبرير شرعية الامتداد المعرفي لعلاقة البنوية التكوينية بالبنوية، وذلك من خلال القول بالتوفيق بين المنهجين؛ البنوي والاجتماعي، ومن ثم الأخذ بالعامل الزمني كون البنوية تسبق زمنياً البنوية التكوينية.
- عدم استناد التصور الغولدماني لمبادئ منهجية واضحة المعالم وثابتة الخطوات، لذلك تختلف التجارب الإجرائية التطبيقية لمنهج غولدمان بين النقاد العرب؛ إذ يبقى تطبيق المنهج رهيناً بمدى قدرة الناقد البنوي التكويني على تطويع المنهج بما يلائم المدونة الإبداعية؛ الأمر الذي من شأنه تنمية الإشكالات المفهومية للمنهج، رغم المقولات الإجرائية التي أرساها غولدمان كرؤية العالم، البنية الدالة، ومستويات الوعي.
- الرؤية المترسّخة والإسقاطية في النقد العربي لعلاقة البنوية التكوينية بالبنوية الشكلانية؛ ذلك أنّ البنوية التكوينية تقول بمحلة الفهم والتي تتوافق - نظرياً - مع مبدأ البنوية في التحليل اللغوي المحايث، الأمر الذي ساهم في تثبيت علاقة امتداد بين المنهجين بالنسبة لبعض القراءات.
- تباين ثقافة النقاد وتفرّع التوجهات المعرفية التي ينهلون منها، ذلك أنّ العامل الثقافي يؤثر في القراءة الفلسفية والمعرفية للمنهج؛ فقراءة غولدمان من اللغة الفرنسية ليست كقراءته من اللغة الإنجليزية - مثلاً - وذلك انطلاقاً من مبدأ المزاج الثقافي العربي الذي يختلف بين الثقافتين المغاربية والمشرقية.

#### هوامش:

- <sup>1</sup> - نور الدين صدار: البنوية التكوينية في القراءات النقدية العربية المعاصرة، (2018)، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، ط1، ص، 64.
- <sup>2</sup> - لوسيان غولدمان، جاك دوبوا، يُون باسكاوي: البنوية التكوينية والنقد الأدبي، مراجعة الترجمة، محمد سيللا، (1986)، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط2، ص، 9.
- <sup>3</sup> - جمال شحيد: في البنوية التركيبية - دراسة في منهج لوسيان غولدمان -، (1982)، دار ابن رشد للطباعة والنشر، لبنان، ط1، ص، 129.
- <sup>4</sup> - محمد عزام: فضاء النص الروائي - مقارنة بنوية تكوينية في أدب نبيل سليمان -، (1996)، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط1، ص، 45.

- <sup>5</sup> - محمد خرماش: إشكالية المناهج في النقد الأدبي المغربي المعاصر - البنيوية التكوينية بين النظر والتطبيق، (2001)، مطبعة آفوف برانت، فاس، المغرب، ط1، ص20.
- <sup>6</sup> - محمد سويرقي: المنهج النقدي - مفهومه وأبعاده وقضاياه، (2015)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د ط، ص، 54.
- <sup>7</sup> - جمال شحيد: مرجع سابق، ص، 83.
- <sup>8</sup> - عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة - من البنيوية إلى التفكيك، (1990)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د ط، ص، 29.
- <sup>9</sup> - أحمد سالم ولد أباه: البنيوية التكوينية والنقد العربي الحديث - دراسة لفاعلية التهجين، (2005)، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، د ط، ص، 77.
- <sup>10</sup> - جمال شحيد: مرجع سابق، ص، 85.
- <sup>11</sup> - محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية - من الأصول الفلسفية إلى الأصول المنهجية، (2015)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، ص، 142.
- <sup>12</sup> - جابر عصفور: نظريات معاصرة، (1997)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د ط، ص، 92.
- <sup>13</sup> - محمد بنيس: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب - مقارنة بنيوية تكوينية، (1985)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، ص، 10.
- <sup>14</sup> - المرجع نفسه: ص، 12.
- <sup>15</sup> - المرجع نفسه: ص، 23، 24.
- <sup>16</sup> - المرجع نفسه: ص، ص، 39، 40.
- <sup>17</sup> - محمد خرماش: مرجع سابق، ص، 109.
- <sup>18</sup> - المرجع نفسه: ص، 108.
- <sup>19</sup> - نور الدين صدار: مرجع سابق، ص، 65.
- <sup>20</sup> - ميجان الرويلي، سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، (2002)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، ص، 76.
- <sup>21</sup> - المرجع نفسه: ص، 64.
- <sup>22</sup> - يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي، (2007)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، ص56.
- <sup>23</sup> - المرجع نفسه: ص، 120.
- <sup>24</sup> - المرجع نفسه: ص، 146.
- <sup>25</sup> - حميد الحمداني: النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، (1990)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، ص، 66.
- <sup>26</sup> - حميد الحمداني: من أجل تحليل سوسيوبنائي لرواية المعلم علي نموذجاً، (1984)، منشورات الجامعة، الدار البيضاء، ط1، ص، 10.
- <sup>27</sup> - حميد الحمداني: النقد الروائي والإيديولوجيا، مرجع سابق، ص، 70.

- <sup>28</sup>- المرجع نفسه: ص، 71.
- <sup>29</sup>- حميد الحمداني: الفكر النقدي الأدبي المعاصر -مناهج ونظريات-، (2014)، مطبعة آفوق برانت، المغرب، ط3، ص، 73.
- <sup>30</sup>- نور الدين صدار: مرجع سابق، ص، 67.
- <sup>31</sup>- جمال شحيد: مرجع سابق، ص، 75.
- <sup>32</sup>- المرجع نفسه: ص، 75.
- <sup>33</sup>- المرجع نفسه: ص، 76.
- <sup>34</sup>- المرجع نفسه: ص، 91.
- <sup>35</sup>- المرجع نفسه: ص، ص، 91، 92.
- <sup>36</sup>- المرجع نفسه: ص، 92.
- <sup>37</sup>- المرجع نفسه: ص، ص، 76، 77.
- <sup>38</sup>- نور الدين صدار: مرجع سابق، ص، 53.
- <sup>39</sup>- المرجع نفسه: ص، 88.
- <sup>40</sup>- المرجع نفسه: ص، 88.
- <sup>41</sup>- المرجع نفسه: ص، 91.
- <sup>42</sup>- المرجع نفسه: ص، 71.

#### قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أحمد سالم ولد أباه: البنيوية التكوينية والنقد العربي الحديث -دراسة لفاعلية التهجين-، (2005)، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، د ط.
- 2- جابر عصفور: نظريات معاصرة، (1997)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د ط.
- 3- جمال شحيد: في البنيوية التركيبية، -دراسة في منهج لوسيان غولدمان-، (1982)، دار ابن رشد للطباعة والنشر، لبنان، ط1.
- 4- حميد الحمداني: الفكر النقدي الأدبي المعاصر -مناهج ونظريات-، (2014)، مطبعة آفوق برانت، المغرب، ط3.
- 5- حميد الحمداني: النقد الروائي والإيديولوجيا -من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي-، (1990) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1.
- 6- حميد الحمداني: من أجل تحليل سوسيونيائي لرواية المعلم علي نموذجاً، (1984)، منشورات الجامعة، الدار البيضاء، ط1.
- 7- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة -من البنيوية إلى التفكيك- (1990)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د ط.
- 8- لوسيان غولدمان، جاك دوبوا، يُون باسكاوي: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، مراجعة الترجمة، محمد سيلا، (1986)، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط2.

- 9- محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية -من الأصول الفلسفية إلى الأصول المنهجية-، (2015)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1.
- 10- محمد بنيس: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب -مقاربة بنيوية تكوينية-، (1985)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2.
- 11- محمد خرماش: إشكالية المناهج في النقد الأدبي المغربي المعاصر -البنيوية التكوينية بين النظر والتطبيق-، (2001)، مطبعة آتفو برانت، فاس، المغرب، ط1.
- 12- محمد سويرتي: المنهج النقدي -مفهومه وأبعاده وقضاياها-، (2015)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د ط.
- 13- محمد عزام: فضاء النص الروائي -مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان-، (1996)، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط1.
- 14- ميجان الرويلي، سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، (2002)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3.
- 15- نور الدين صدار: البنيوية التكوينية في القراءات النقدية العربية المعاصرة، (2018)، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، ط1.
- 16- يوسف وغيلسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي، (2007)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1.